

العنوان:	تطوان وجبل طارق محوران للعلاقات المغربية الإنجليزية خلال القرن التاسع عشر
المصدر:	مجلة أفشوت
الناشر:	جامعة عبدالمالك السعدى - مدرسة الملك فهد العليا للترجمة - مجموعة البحث في الترجمة والدراسات المقارنة
المؤلف الرئيسي:	بوهليلة، إدريس
المجلد/العدد:	ع2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2002
الصفحات:	29 - 36
رقم MD:	592548
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	مدينة تطوان ، جبل طارق ، المغرب، إنجلترا ، العلاقات الدبلوماسية ، التبادل التجاري ، القرن التاسع عشر
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/592548

© 2020 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

تطوان و جبل طارق: محوران للعلاقات المغربية الإنجليزية خلال القرن التاسع عشر

إدريس بوهليلة *

يهدف موضوع هذا العرض إلى إبراز الدور الذي اكتسته مدينة تطوان وجبل طارق في إطار العلاقات الدولية، التي جمعت بين المغرب وانجلترا خلال القرن التاسع عشر، محاولا استجلاء أهم المجالات التي شكلت نسيج هذه الصلات والعلاقات، والتي تمحورت حول المعاملات الاقتصادية التجارية، في وقت ازداد فيه التنافس الاستعماري الأوربي حول المغرب، وبصفة خاصة دولة فرنسا و إسبانيا وإنجلترا. وكانت مدينة تطوان، لموقعها الاستراتيجي و القريب من اوربا محط اهتمام هذه الدول، التي تهافتت على ربط علاقات متميزة معها في مختلف مناحيها.

1 -دور تطوان و جبل طارق في العلاقات المغربية الانجليزية:

قامت تطوان بدور أساسي و فعال في ربط العلاقات المغربية الإنجليزية عبر جبل طارق، الذي ستتوسع أهميته مع مرور الزمن، انطلاقا من بداية القرن الثامن عشر الميلادي، و بالتحديد، ابتداءا من سنة 1704، تاريخ الامتداد الإنجليزي الاستيطاني إلى جبل طارق، في مضمار التوسع الاستعماري الأوربي في عرض البحر الأبيض المتوسط، مما كان له تأثيرا مباشرا في تاريخ المغرب و علاقاته الدولية.

* إدريس بوهليلة، أستاذ باحث، شعبة التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان، المغرب.

مجلة أوفشوت 4، 2، 2002، 29-36   OFFSHOOT 4, 2, 2002, 29-36

فبعد أن كانت مدينة سبتة، همزة وصل بين المغرب ودول البحر الأبيض المتوسط وأوربا عموما، في العصر الوسيط، أضحت مدينة تطوان بمرفئها النهري، وادي مرتيل، الوسيط المحوري بين المغرب و أوربا، بل وشمال إفريقيا، والشرق العربي و افريقيا جنوب الصحراء، نظرا لأهمية موقعها الجغرافي الاستراتيجي، لتحتل تطوان نتيجة ذلك الدرجة الثانية، وأحيانا الأولى من بين المراسي المغربية المفتوحة أمام التجارة الخارجية في القرن الثامن عشر[1]

وعن هذا الدور الفعال لمدينة تطوان، يقول جان لويي مييج: «وتتجلى أهمية تطوان من خلال تعدد أنشطتها البحرية المختلفة التي شملت التجارة المباشرة و تجارة القوافل البحرية و الحج و القرصنة»[2] ثم يضيف قائلا، مبرزا مراكز اشعاع أنشطة تطوان التجارية: «ولقد بلغ مجال عملها برا إفريقيا السوداء عبر محطة ترحيل فاس، وشمل أيضا كل شمال البلاد، أما في البحر فكان هذا المجال أساسا متوسطيا من قادس إلى مرسيليا، ومن ليفون إلى الإسكندرية وبدرجة أقل بلغ مدى عمل ميناء تطوان لندن وامستردام عن طريق لشبونة، التي كانت في جملة الموانئ التي قامت بدور الوسيط»[3]

كما أن جبل طارق، بوابة أوربا، أصبح له نفس الدور والريادة في العلاقات الانجليزية الدولية في حوض البحر الأبيض المتوسط، ومن ذلك ربط صلات و علاقات تجارية ودبلوماسية نشيطة بين إنجلترا و المغرب، خاصة خلال القرن الثامن عشر و التاسع عشر. وقد تعمق هذا الدور مع تحول جبل طارق مابين سنة 1731 و1750 من قاعدة عسكرية استراتيجية إلى مركز تجاري هام[4]، ومركز للاستخبارات، وتجميع المعلومات والأخبار التجارية والبحرية و السياسية.

لقد اضطلع جبل طارق بعدة مهام أساسية، في العلاقات الدولية لإنجلترا، نوجز أهمها في اعتباره:

-مخزن للمنتوجات الإنجليزية و البضائع المستوردة من المستعمرات ومناطق النفوذ.

–قلعة لحماية التجارة في البحر الأبيض المتوسط و المصالح العامة للإنجليز في المغرب.

–قاعدة خلفية تقف فيها السفن التجارية و الحربية «من أجل الصيانة وإعادة التموين و التجهين»[5]

–مركز تأمين السلع الآتية من دول أوربا و شمال إفريقيا وغيرها.

2-تطوان و جبل طارق كمحورين للعلاقات التجارية بين المغرب وإنجلترا:

إن دور تطوان في ربط علاقات وصلات تجارية وسياسية دبلوماسية مع جبل طارق ومن ثم انجلترا، قد تعزز بعد توقيع معاهدة السلم و التجارة في يناير سنة 1721،بميناء مدينة تطوان. يقول محمد داود في هذا الصدد: «وفي سنة 1720 (1133هـ) أرسل جورج الأول ملك بريطانيا بعثة إلى المغرب برئاسة المستر شارل استيوارت Charles Stewart لعقد معاهدة مع الدولة المغربية ولفداء الأسرى الانجليزين(...) مع العلم إن هذه البعثة توقفت في جبل طارق ثم توجهت إلى مدينة تطوان»[6]. وقد نصت بعض بنود هذه المعاهدة، على حرية رعايا السلطان في التنقل و المتاجرة لمدة ثلاثين يوما في جبل طارق و السماح للانجليز باقتناء ما يحتاجونه من المغرب من المؤن لتزويد أسطولهم وحامية جبل طارق ووسقها دون آداء الواجبات الجمركية[7]. فغدت مدينة تطوان حينئذ، هي الممون الأساسي لجبل طارق بالمواد الغذائية، مثل اللحوم و الفواكه و الطيور والدواجن والبيض[8]والماء.

وتعتبر المواد التي أضيفت سنتي 1728 و1729 إلى المعاهدة الموقعة سنة1721 جازمة فيما يخص تموين حامية جبل طارق[9]

كما أصبحت تطوان تستورد المنتوجات الإنجليزية وبشكل ملحوظ مواد الشاي و السكر، و التجهيزات العسكرية. فكانت هي ثاني مستورد لمادة الشاي بعد مدينة سلا.

إلا أن هذه العلاقة الوطيدة بين تطوان و جبل طارق ستعرف انتكاسة خلال الثلاثة عقود الأخيرة من القرن الثامن عشر حيث ستظهر إلى الوجود

مجموعة من المدن المنافسة لتطوان وبصفة خاصة مدينة طنجة، والصويرة، و آسفي والجديدة، و الدار البيضاء، أي المدن الواقعة أو المطلة على المحيط الأطلسي. مما يعني تحول اتجاه التجارة المغربية من البحر الأبيض المتوسط إلى الساحل الغربي الأطلسي.

ومع أوائل القرن التاسع عشر ستشهد التجارة المتوسطية والمغربية نهضة مهمة لكنها بطيئة بالمقارنة مع أوائل القرن الثامن عشر حسب ما لاحظه الباحثون في هذا المجال. فقد ظلت مدينة تطوان–مع ذلك–تحتفظ بمركزها التجاري مع دول أوربا و من ضمنها إنجلترا و جبل طارق[10]، ففي سنة1823بلغ عدد السفن القادمة من تطوان إلى جبل طارق 25 سفينة[11]. وفي سنة 35،1830 سفينة [12].

أما عدد السفن التي دخلت إلى ميناء تطوان، قادمة من جبل طارق وإنجلترا سنة، 38,1835 سفينة.[13]على أنه يمثل العقد الممتد من سنة 1835 إلى 1846 آخر عصر زاه عرفته الملاحة التطوانية قبل انحطاطها المحتوم[14]، حيث نزلت تطوان من الرتبة الثانية إلى الرتبة الثالثة سنة 1840و إلى الرتبة الرابعة سنة 1850 ثم إلى الرتبة الخامسة سنة 1860، إلى أن تحتل الرتبة الأخيرة في نهاية القرن التاسع عشر[15].

كل هذا كان له الأثر السئ على العلاقات التطوانية الجبل طارقية، ومن ثم العلاقات المغربية الانجليزية[16]عبر البحر الأبيض المتوسط.

ومن أجل رفع المستوى التجاري بالمنطقة الشمالية ، سلك السلطان مولاي عبد الرحمان سياسة تعتمد على منح التسهيلات للتجار وحق احتكار الوسق، مما أدى إلى تحسين مداخيل مرسى تطوان. إذ بلغ قدر المستفاد الخاص من المرسى سنة 1843 ثلاثة وتسعون آلف مثقال وسبعمائة وثلاثة وثلاثون مثقالا و خمس أواقي و ثلاث موزونات(///937335)

ويزخر كتاب *تاريخ تطوان* لمؤلفه الفقيه محمد داود بالوثائق المخزنية و الرسائل السلطانية، التي تشير إلى العلاقات التجارية والدبلوماسية بين تطوان و جبل طارق خلال منتصف القرن التاسع عشر

عندما كانت التجارة التطوانية الخارجية في طريقها إلى الاحتضار، منها:
-رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان إلى الأمين أحمد الرزيني يأمره فيها بالسماح لقنصل انجلترا، وَسَقَ ثلاثين ثورا كل عام إلى المرضى بجبل طارق[18] .
-وفي إطار العلاقات التجارية أيضا، تُفصح الرسالة السلطانية المؤرخة بـ17 جمادى الأولى عام 1260هـ عن تكليف السلطان مولاي عبد الرحمن بن هاشم، القائد محمد أشعاش بأن يأمر تجار تطوان بجلب سلع عسكرية من جبل طارق[19].
-ومن التسهيلات و الامتيازات المخولة لبعض الإنجليز المستقرين بمدينة تطوان، حصولهم على رخص (كنطرادات) احتكار الدباغة بالمدينة، وكمثال على ذلك التاجر الإنجليزي جيمس طينري الذي سمح له السلطان عبد الرحمان باحتكار «الدبغ» لمدة خمس سنين مقابل خمسة آلاف ريال كما جاء في الرسالة السلطانية[20] .

وفي رسالة أخرى أن الرخصة لا تتجاوز ثلاث سنين[21] حتى أنه صدر ظهير شريف بذلك.

-وفي إطار تزويد جبل طارق بالمواد الغذائية من اللحوم وغيرها و التي كانت تسوق من مينائي تطوان وطنجة، بعث السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام رسالة إلى محمد أشعاش يأمره فيها بوسق خمس عشر مائة من طنجة وخمسمائة من تطوان من الثيران لحاكم جبل طارق الآمر بهذا القدر[22].
-كما تبرز إحدى الرسائل أهمية جبل طارق بالنسبة للمغرب وذلك بمناسبة تذكير السلطان عبد الرحمان بن هاشم، القائد محمد أشعاش بتعيين الحاج محمد الرزيني قنصلا للمغرب في جبل طارق حيث جاء فيها: «وبعد فإن جبل طارق أولى ما يعتنى بجعل الوكيل الحازم فيه، الذي يقوم بأمور التجار والواردين من الحجاج وغيرهم فيه، لأنه معظم التجارة، وباب الصادر والوارد»[23].
-ومن مساعدات و تسهيلات السلطان لتشجيع التجار المغاربة بجبل طارق،

وربما لارتباط مصالحه بهم، ما سلفه مولاي عبد الرحمان للحاج محمد الرزيني مقدار: عشرون ألف ريال. وهو المقدار الذي طلبه هذا الأخير «وماطلب من إسلاف عشرين ألف ريال فادفع له العدد المذكور على وجه السلف والتوسعة»[24].

والجدير بالذكر إنه تكاد لا تخلو أية رسالة موجهة إلى الحاج محمد الرزيني من أي مصدر كان، من طلب سلع و أشياء كثيرة كيفما كان وزنها، مما يدل على أن الرزيني كان صلة وصل مباشرة للمعاملات التجارية التي كانت تتم بين المغرب و جبل طارق و من ثم إنجلترا [25].

إلا أنه، يُلاحظ علي العموم، من خلال الدراسات المنجزة حول تاريخ مدينة تطوان، أن هذه الأخيرة، تراجعت فيها الأنشطة التجارية ابتداءاً من منتصف القرن التاسع عشر، لأسباب عديدة، منها على الخصوص، الظرفية التاريخية الصعبة التي كان يمر بها المغرب على إثر التنافس الاستعماري عليه. فالسنوات التي عقبت الحرب المغربية الإسبانية بتطوان كانت كارثية بالنسبة للتجارة التطوانية. يبدو ذلك جليا من خلال التراجع الذي سجلته أعداد المراكب المترددة على المرسى التطواني و كذا أحجامها وقيمة حمولتها. وقد علل كرين K.Green القنصل الإنجليزي بتطوان لسنة 1860-1861 انهيار تجارة التصدير بالخلاف الذي قام وقتئذ بين سكان الريف وعامل تطوان، حيث لجأ هذا الأخير إلى فرض حصار على المنتجات الريفية، و أصدر أوامره بحجز كل المراكب الريفية التي يمكن أن تتردد على مرسى تطوان[26].

كما يعود فتور ميناء تطوان التجاري، إلى عزلة تطوان عن الانطلاقة التجارية و الحضارية لبعض المراسي المغربية مثل طنجة و الدار البيضاء والصويرة و آسفي و الجديدة. حيث أن مرفأها النهري لم يعد مؤهلا لاستقبال السفن البخارية، وذات الحمولة الكبيرة.يضاف إلى ذلك فتح حصني سبتة ومليلية أمام التجارة الخارجية الحرة، و بالتالي انحطاط التجارة بجبل طارق خلال أواخر القرن التاسع عشر بعد إقامة خطوط منظمة للملاحة الدولية.

وهكذا شهدت كل من مدينة تطوان وجبل طارق معا، تراجعا كبيرا في المعاملات التجارية و كذا العلاقات الدبلوماسية بينهما، ابتداءا من أواسط القرن التاسع عشر لتبلغ ذروتها في أواخر القرن المذكور، وأوائل القرن العشرين، بعدما سجلت أزهى عصورها خلال القرن الثامن عشر و منتصف الأول من القرن التاسع عشر، تاركين المجال لمدن أخرى اكتسحت الأنشطة التجارية و السياسية في إطار الظروف و المتغيرات الدولية.

الهوامش:

[1]) عبد العزيز سعود: *تطوان خلال القرن التاسع عشر*، منشورات جمعية تطوان أسمير، مطبعة الحداد يوسف إخوان، (الهداية) 1996 تطوان،ص 43

[2])جان لوبي مييح: *أنشطة تطوان البحرية و التجارية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر*، ترجمة مصطفى غطيس، مجلة كلية الآداب بتطوان، العدد7 السنة:1994، مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء،ص:78.

[3])نفس المرجع السابق ص. 78-79

[4])عبد الحي بنيس،*تطوان محطة عبور البعثات الأجنبية إلى مكناس في بداية القرن 18*،أعمال ندوة تطوان خلال القرن الثامن عشر (1727-1822)، جامعة عبد المالك السعدي، مطبعة الهداية–تطوان، 1944 ص:65

[5])س. باك: *القدرة البحرية في البحر الأبيض المتوسط*، ترجمة بسام العسلي، دار الشورى، بيروت، الطبعة الأولى 1981، ص. 79

[6])محمد داود: مختصر *تاريخ تطوان*، المهدية–تطوان، الطبعة الأولى1955/1375، ص. 70-71

[7])عبد العزيز سعود: دور *تطوان في المبادلات الخارجية*(1767-1721)ضمن أعمال ندوة تطوان خلال القرن الثامن عشر(1727-1822) المنظمة من طرف مجموعة البحث في التاريخ المغربي والأندلسي،جامعة عبد المالك السعدي، 1993،مطبعة الهداية، تطوان 1994 ص. 45.

[8])جان لوبي مبييح: *أنشطة تطوان البحرية و التجارية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر*، ص. 81.

[9])نفس المرجع السابق و الصفحة هامش رقم 53.

[10]) Jean Louis Miége: *Le Maroc et l'europe* (1822-1906) Edition la porte, imprimerie El maârif Al jadida-Rabat, Maroc.Tome II p : 139.

[11])جان لويي مييج: أنشطة تطوان البحرية والتجارية: ص. 99

[12])نفس المرجع السابق ص. 103

[13])نفس المرجع السابق ص. 104

[14]) نفس المرجع السابق ض. 90

[15])نفس المرجع السابق ص. 91

[16]) (J.L) Miége: *Le Maroc et l'europe* , T II ,P:247

[17]) عبد العزيز سعود: *تطوان خلال القرن التاسع عشر*، ص. 55

[18])محمد داود: *تاريخ تطوان*، منشورات الخزانة الداودية-تطووان-1419/1898م الطبعة الأولى، مطبعة سيليكي إخوان-طنجة-المجلد التاسع،ص 27.

و الرسالة مؤرخة ب 18 ربيع النبوي عام 1260هـ (1844م).

[19])نفس المرجع السابق، ج9، ص. 44.

[20])وهي مؤرخة ب 25 رمضان 1260هـ (1844م)

انظر المرجع السابق ج9 ص. 117.

[21])المرجع السابق ج9،ص. 119.

و الرسالة مؤرخة بـ7شوال عام 1260 هـ (1844م)

[22])الرسالة مؤرخة ب12 ذي القعدة الحرام عام 1260هـ(1844)

انظر المرجع السابق،ج9،ص. 127.

[23])داود، *تاريخ تطوان*. ج9ص. 134.

و الرسالة المؤرخة بـ25 ذي القعدة الحرام عام 1260هـ.

[24])نفس المرجع السابق، ج9ص. 142.

[25])أثبت محمد داود عدة رسائل من هذا الصنف في الجزء التاسع من الكتاب المذكور ص 421-423.431.

وهي مؤرخة بسنة 1265/1848.

[26])خالد بن الصغير:المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر(1856-1886)الشركة المغربية للنشر ولادة الدار البيضاء-المغرب، ص. 204